ثروت اباظة

ابن عمار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١ ـ عـــودة

أهكذا يعود ! ! يا لها من آمال عراض تلك التى صحبها يـوم تـرك موقفه هذا منذ سـنين ... إنـه لم ينـس بعـد تلـك الأمـانى العذبـة التى كانت تزحم نفسه يوم ضاق به العيش فى بلدته « شلب » فنزح عنها وفى نفسه آمال ، وفى قلبه أمان ، وفى صدره عزم ، وفى كـل دمائـه شعر ... لقد ترك بلدته مهد ميـلاده ومـدرج طفولتـه ومغنـى شـبابه ؛ ليدور بشعره على الملوك يسترفد مالهم بما يرفـده عليهـم مـن شـعره ، ولقد دار ، ولقد مدح ، فبـالغ فـى المديـح . ولقـد كـذب علـى الحـق فأوغل فى الكذب ، ولقد أمات ضميره ليجعـل الظـالم منهـم عـادلا ، والمجنون فيهم حكيماً ، ولقد محا من ذاكرته كل ما يعرفـه عـن هـؤلاء الملوك من شر ، ولقد أنمـى بشـاعريته كـل مـا كـان يعرفـه عنهـم مـن خير ... ثم هو زاد عليه ، ثم هو أنشأ لهم الخير ، ثم هو قلب مقـابحهم أفضالا ، ثم مدح ، ثم مد يده وثناها ... ألا ما أبخس ثمن الضمير فـى رحاب الملوك ... إنه ليفكر أنال كفـء ما أعطى ؟ أكانت تساوى هذه

الدريهمات خروجه ودورانه وكذبه واختلاقه ؟...بل أتعدل هذه الدريهمات أن يترك بلده الحبيب ... إن يكن ضاق به فها هى ذى الدنيا جمعاء تضيق به ... ولكن أضاقت الدنيا أو ضاقت « شلب » به هو .. أم أنها ضاقت ببضاعته ... وكيف تضيق ؟؟ إنه يبيع شعراً ... إنه يهب لمادحه فكراً انتظم فصار شعراً ... أهذا قليل !! ما شأن ممدوحه إن خالج هذا الفكر شعور أو لم يخالجه ... ألم ينظم شعراً ... ألم يحسن ما نظم ؟ فما هذه الدريهمات الضئيلة التى يصيبها !! فأين هذا العدل الذين يزعمون وجوده فى الدنيا ؟! وأى دنيا التى تجعل الشاعر العبقرى يتمسح بأبواب الجهلة من الملوك والوزراء !! يسكب عليهم شعره فلا يصيب منهم غير هاته الضحكة البلهاء التى تلتصق بشفاههم يحاولون بها إفهامه أنهم يفهمون ما يقول ، ويحاولون بها أن يصدقوا هم فى أنفسهم أن هذا المديح الذى يسمعون حق لا رياء فيه ولا كذب . ثم هو لا يصيب من بعد إلا هذه الدريهمات يلقونها إليه إلقاء !! ولو تجسمت السعادة التى يحسونها بالمديح ، ولو وضعت مجسمة فى كفة لما عادلها مال العالم أجمع . ولكنهم مع هذا يبخسونه حقه ، واهمين أن ما قاله لا يعدو الحق فى شىء ، فهو لم يخلق جديداً ، ولم يمت ضميراً ، ولم ينشئ فضلا ، ولم يقلب القبح حسناً ، وهو لا يستحق إلا هذا القليل .

هكذا كان يفكر ابن عمار وهو واقف بأبواب « شلب » عائداً إليها من سفره هذا الطويل وقد تضاءلت آماله ، فبعد أن كانت تهفو إلى الغنى والشهرة والجاه العريض ، أصبحت تحوم حول حفنة من الغلال يقيم بها أود نفسه وأود حماره الذى أضناه السفر فى تحقيق الآمال .

دخل ابن عمار « شلب » راكباً حماره الهزيل يفصله عن ظهره خرج قديم قذر كان هو كل ما يلبسه الحمار . أما هو ... أما أبو بكر محمد بن عمار فقد كان يضع على نفسه بضعة أخلاق من الثياب ، إن اختل نظام واحدة منها وضحت من تحتها عظام الشاعر بارزة تكاد تطل من جسم صاحبها ، وكان يضع على رأسه قلنسوة صغيرة يكاد شعره أن يلقى بها . دخل ابن عمار شلباً لا يقصد فيها إلى أحد ؛ فلقد ربى وشب فى قرية من أعمالها ، وإن كان قد تلقى علومه فى شلب على « ابن الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم » إلا أن أستاذه هذا قد مات ومات معه أغلب من كان يعرفهم ابن عمار من الأساتذة ، والباقى منهم لا يجرؤ ابن عمار أن يقصد إليه ليطلب ؛ فجميعهم فقير . فلم يبق أمام ابن عمار إلا أن يكافح وحده ليرد جوع نفسه وجوع حماره الذى أضناه .

سار ابن عمار يتلفت فى ذلة الجائع وفى عزة الشاعر ، فلا يجد وسيلة إلى أحد ممن يرى ، وكان الناس ينظرون إليه على حماره هذا

الهزيل ، فتبدو على وجوه بعضهم الشفقة والإشفاق على هـذا الهـزال المركب ، وتبدو على وجوه أخرى السخرية من تلك الأثمال التى تكاد تلتئم جنباتها جميعاً من شدة هزال صاحبها ، والتى كانت تبـدو وكـأن أحداً لا يلبسها ، وإنما هى منتصبة بقدرة معجـزة ، وكـانت السـخرية تتضح وتستبين حين تنصب عين الساخر على الحمار المضنى من كـثرة المشى ، لا من الحمل الذى يحمل ، فهو لا يحمل شيئاً ...

ولكن ابن عمار كان مشغولا عن هـذا كلـه بجوعـه وجـوع حمـاره الذى تركه يسير ، لم يوجهه وجهة معينة ، بل تـرك لـه حـق القيـادة ، والحمارِ لا يعرف طريقاً إلى بيت ، ولا سبيلا إلى مرتع ، وإنما هو يـرى طريقا فيسير ، ولقد يعوج الطريق أو يعتدل فيعوج معه ويعتدل ، حتى إذا وجد طريقين عليه أن يختـار بينهمـا ، اختـار دون أن يكـون لعقلـه وازع فى هذا الاختيار ، فهو حمار يسير لا يدرى لماذا يسـير ، ولا أيـن الطريق ... وطال الأمر على ابن عمار والحمار ، فالطريق طويل علـى مـن لا يعـرف مقصـداً ، ولقـد مـالت الشـمس لغـروب وكـادت أن تغيب ، وكاد أن يغرب معها أمل ابن عمار الأخير الذى تضاءل حتـى أصبح حفنة من غلال .

وفجأة أشرق سوق الغلال فى عين ابن عمار ، فوقـف الحمـار مـن تلقاء نفسه على مبعدة قريبة من السوق ، وأخذ ابـن عمـار يفكـر فـى وسيلة ينال بها أمله الأخير هذا ... أيسأل تاجراً أن ينسئه حفنة غلال

يرد له ثمنها عند ميسرة ، ولكن ما الذى يدعو التاجر إلى ائتمانه وهو لا يعرفه ، وهل هو نفسه يأتمن نفسه ؟ وأين هى تلك الميسرة التى يريد أن يرد فيها الثمن ؟... لا ... لا فائدة من النسيئة ... أيستجدى التاجر ؟...لا ، ودون هذا موته وموت الحمار جميعاً ... فكر ابن عمار فأطال التفكير ثم وثب إلى ذهنه خاطر ... أخذ يقلبه على أوجهه ... لماذا لا يمدح هذا التاجر بشيء من الشعر !... نعم إنه لم يمدح غير الملوك والسراة من القوم ، ولكن ما البأس فى أن يمدح هذا التاجر ، لقد كان يمدح الملوك والسراة ليصيب منهم مالا يشترى به غلالا ... لقد كان الملوك والسراة طريقاً له إلى هذا التاجر وأمثاله ... وقد مدح هو الطريق ليصل إلى المقصد ، فماله لا يمدح المقصد بعد أن خذله الطريق ؟ ولكن أيفهم التاجر الشعر ؟ وحينئذ ضحك ابن عمار فى نفسه ، فأغرقت نفسه فى الضحك ... وهل فهم الملوك والسراة جميعهم الشعر ؟ ... سوف يمدح التاجر فإنه بهذا ينال ما يصبو إليه ، إنه بهذا سيدخل إلى نفس هذا التاجر فرحاً لم يتوقعه فى يوم من الأيام . وعزم ابن عمار وبدأ فى التنفيذ ، وأخرج من جيبه قرطاساً وخط عليه فى سرعة بضعة أبيات ، ثم هم أن يدع ظهر الحمار ويسعى إلى التاجر ، ولكنه عاد إلى نفسه وخجل أن يفعل ؛ فهو لم يعوّد وقفه فى السوق ، وهو لم يعود أن يرى ممدوحه معه على الأرض ، بل يراه داتماً على ذروة عرشه .. فكر ابن عمار فى وسيلة

يبلغ بها قرطاسه إلى التاجر . وبينما هوحائر ، مر به غلام استوقفه ابن عمار وطلب إليه أن يبلغ ورقته وفيها شعره إلى التاجر الذى استوجهه ابن عمار . وكان الغلام طيعاً فأخذ الورقة وقصد بها إلى التاجر ، فأخذها وألقى إليها نظرة كانت كافية لأن يغمر السرور وجهه . فلقد أصبح ممدوحاً يقال فيه الشعر ويرجى لديه النوال ، ولم يفهم التاجر من الشعر شيئاً غير أنه شعر ، وغير أن هذا الشعر لا يمدح به غير الملوك والسراة .. ولما كان التاجر واثقاً أنه ليس ملكاً فلا بد إذن أن يكون من السراة . وهكذا أسرع إلى مخلاة لديه وأراد أن يملأها براً[1] ولكن غريزة التاجر فيه ردت يده فى سرعة ، وألقت بها إلى الشعير فملأ المخلاة منه وأعطاه إلى الغلام . ثم التفت إلى غلاله يجمعها ، يريد أن يبلغ بيته فيفهم زوجه التى لا تنى عن إيذائه أنه أصبح ممدوحاً وأنه من السراة .

وانكفأ الغلام إلى ابن عمار يحمل إليه المخلاة بحملها الجديد ، ففرح ابن عمار ورأى فى هذه المخلاة آماله قد تحققت ، بل إن آمال حماره أيضا قد تحققت معه ، ولم يبق له إلا أن يفكر فى مثل هذه الآمال لغده الذى ينتظره ، والذى يتربص به ليفعل به مثلما فعل الأمس ، ومثل ما يفعل اليوم ، ومثل ما تفعل كل إخوان هذا الغد من ذاهب وحاضر فى ابن عمار . فويل لابن عمار من غده .. أو ويل للغد من ابن عمار .

---

(١) البر (بضم الباء) : القمح .

٢ ـ عهد الملوك

لم يمكث ابن عمار فى شلب ، فقد أصبحت فى عينيه مثل سائر البلدان التى مر بها فى تطوافه ، وإن تكن فى نفسه مهد طفولة ومدرج صبى ومعهد ذكريات .

كان لابد لابن عمار أن يأكل ، وكان لابد لحماره أن يأكل معه ، ولم يكن فى مقدور ابن عمار أن يقصر شعره على التجار ، وما كل تاجر مثل ذلك الرجل الكريم الذى وصله ، وإن تكن آمال ابن عمار تضاءلت ، إلا أنها فى البعيد البعيد من نفسه ما زالت ، وهى هى وما زالت تلقى به إلى كل متجه يرجى فيه خير .

وكانت الأندلس فى ذلك الحين مقسمة إلى دويلات على كل منها حاكم ، وقد أصر هؤلاء الحكام أن يسموا دويلاتهم ممالك حتى يتسنى لهم أن يسموا أنفسهم ملوكاً . ولقد كثر بينهم التنازع ، ولكنهم لم يتنازعوا فى هذه التسمية قط ، فقد اعترف كل منهم للآخر بها ، حتى يضمن اعتراف هذا الآخر لنفسه . ولكن التاريخ

أبى أن يعترف باعترافاتهم هذه ، ولم يقبل أن يطلق عليهم ملوكاً ، ثم يسكت عنهم ، وإنما أطلق عليهم اسم « ملوك الطوائف » . فكانت هذه التسمية من التاريخ دليلا على أن هذا التاريخ قد يصدق فى بعض الأحايين .

كان بنو عباد هم أقوى أسرة حكمت فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء ، وقد كانت إشبيلية هى مقر حكمهم ، وقد تحدر السُملك فى بنى عباد حتى وصل إلى « أبى عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد » . وقد ولى الحكم بعد أبيه وأطلق على نفسه اسم « المعتضد » ، وكان أبوه القاضى أبوالقاسم محمد بن إسماعيل من خيرة الملوك الذين حكموا فى هذا الزمان . وقد سار المعتضد فى طريق أبيه قليلا ، فكان يستشير ويعدل ، ثم مال عن هذا الطريق فاستبد بالحكم وحده ، ولم يكن عهده كله شراً ، فإن التاريخ ليقول عنه كثيراً من الخير ، ولكنه كان سفاكاً باطشاً ، ولعل النقائض لم تجتمع فى شخص كما تجمعت فى المعتضد ، فهو قاس غليظ القلب ، ولكنه فى مجالسه رقيق الحاشية ، حسن الذوق ، شاعر محب للشعر ، وقد كان مستمعاً للشعر خيراً منه ناظماً له .

سمع ابن عمار عن المعتضد وعن حبه للشعر ، فشد إليه الحمار ، عساه أن يجد لنفسه متسعاً فى الزحام . ووقف ابن عمار إلى المعتضد ، وقد جلس إلى جانبه ابنه « المعتمد » وقد كان من أحسن شعراء

عصره .. وقف ابن عمار وألقى قصيدته التى أضنى ذهنه فى إعدادها ؛ فقد كان يعلم أن آمال المستقبل أجمع رهينة بأبياته هذه .

قال ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرَى

والصبح قد أهدى لنا كافورةً ... لما استزدّ الليل منا العنبرا

والروض كالحسنا كساه زهره ... وشيا وقلده نداه جوهرا

أو كالغلام زها بورد رياضه ... حجلا ، وتاه بآسهن معذرا

روض كأن النهر فيه معصم ... صاف أطل على رداء أخضرا

وتهزه ريح الصبا فتخاله ... سيفَ ابن عباد يبدد عسكرا

عبادٌ المخضر نائلُ كفه ... والجو قد لبس الرداء الأغْبرا

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ... ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر الندى ... وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

يختار أن يهب الخريدة كاعبا ... والطرف أجرد ، والحسام مجوهرا

قداح زند المجد ، لا ينفك عن ... نار الوغى إلا إلى نار القرى[1]

لا خلق أفرى من شفار حسامه ... إن كنت شبهت المواكب أسطرا

أيقنت أنى من ذراه بجنة ... لما سقانى من نداه الكوثرا

وعلمت حقاً أن ربعى مخصبٌ ... لما سألت به الغمام الممطرا

من لا توازنه الجبال إذا احتبى ... من لا تسابقه الرياح إذا جرى

---

(١) ما يقدمه المضيف لضيفه .

ماض وكف الرمح يكهم ، والظبا تنبو ، وأيدى الخيل تعثر فى الثرى
من كل أبيض قد تقلد أبيضاً عضباً ، وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خَلقه أو خُلقه كالروض يحسن منظراً أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته فرأيته فى بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطراً بثنائه حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الندى من كفه وجنت به روض السرور منورا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن أسعى بجد أو أموت فأعذرا
يأيها الملك الذى حاز المنى وحباه منه بمثل همدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة فى الحرب إن كانت يمينك منبرا
ما زلت تغنى من منالك راجيا نيلا ، وتفنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسمت بربرا[1]
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء ملوكهم لما علمت الحسن يلبس أحمرا
نمقتها وشيا بذكرك مذهبا وفتقتها مسكاً بحمدك أذفرا
من ذا ينافحنى وذكرك صندل أوردته من نار فكرى مجمرا

---

(١) كانت هذه القصيدة على أثر وقعة انتصر فيها المعتضد على البربر ..

فلئن وجدت نسيم حمدى عاطراً فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

وإليكها كالروض زارته الصبا وحنا عليه الطل حتى نورا

وإن فى هذه القصيدة أبياتاً تظهر فى جلاء كيف تمتزج الوحشية بالجمال : فالرمح على سنانه الرأس هو ـ فى رأى ابن عمار ـ غصن مثمر ، والسيف خضبه الدم هو الحسن الذى يلبس أحمر . ولعل ابن عمار قصد إلى اجتماع القسوة والجمال فى نفس المعتضد ، أو لعله لم يقصد .. ولعله حينما أمات ضميره ومدح ، جاءت هذه الأبيات فى زحمة المديح ، ورأى نفسه يمدح شخصاً لأنه قتل ، فأراد أن يعتذر عما فعل ، ويعتذر للممدوح عما قتل . فكانت هذه الأبيات .. لعله ، ولعله لم .. أيا يكون الأمر فقد ألقى ابن عمار قصيدته ، ثم خرج من الديوان لينتظر ما قد يجود به عليه المعتضد ، ولقد انتظر ابن عمار فطال به الانتظار ، حتى رأى بقاءه بعد هذا عبثاً لا طائل تحته ، وحاول أن يصبر نفسه ، ولكنه أحس أن آماله فى جائزة خيال ، فقام من جلسته وفى نفسه حسرة لاعجة ، فقد كان كل مناه أن يقيم بهذا الرحاب غير نازح ، ها هو ذا يخرج منه حتى بغير الجائزة التى كان ينالها من الملوك الذين لا يفهمون الشعر ولا يقدرونه .. لقد علق مناه بقصيدته ، وكم يخذل الشعر أصحابه .. ليخرج إذن من القصر فلا يقيم .. بل ليخرج من غير جائزة ، وحسبه أنه خرج سالماً إن كان فى السلامة مع التشرد احتساب لمحتسب .. خرج ابن عمار إلى حماره

الذى تركه خارج القصر ، وسار إلى حيث ترك الحمار ، ولكن يا للمصيبة النازلة ! ! لم يكن الحمار هناك . بحث ابن عمار حول القصر ، وأطال البحث فلم يهتد إلى حماره الأثير ، فجلس على سور القصر وفى نفسه ألم وحسرة ، وأخذ يفكر فى حماره الذاهب .. لقد صحبه منذ سنين ، ولقد رأى معه مر الحياة وحلوها .. وماذا ؟! .. حلوها ؟.. أين حلو الحياة هذا الذى ذاقه معه الحمار .. إنه لم يعرفه .. لا بأس ، لقد كان إذن حماراً صبوراً احتمل مر الحياة وحده فلم يطالب بحلوها .. ولكن أكان يستطيع أن يطالب ؟ لقد كان صامتاً لأنه مرغم على الصمت . ثم من أين يدرى أنه سرق الآن ؟ لعله هو الذى هرب وحده دون سارق . إنه هو هذا الخائن ، لم تكد بارقة أمل تلوح له فى هذه المدينة الضخمة حتى ترك صاحبه أحوج ما يكون إليه ليبحث عن صاحب آخر ..لم يكن وفياً ذلك الحمار .. ولعله أيضاً كان نحسا على صاحبه ، فإن خيراً ما لم يصب ابن عمار وهو راكبه .. أكان نحساً حقاً يابن عمار ؟ أم أنك تصبر نفسك على ما أصابها ؟ فكر ابن عمار فأطال التفكير ، وقد انتهى إلى أن هذا الحمار كان نحساً عليه ، فمس قلبه طيف من الراحة لم تتركه نفسه دون أن تفسده عليه ، فحادثت صاحبها هازئة : « أكان الحمار نحساً أيها الشاعر ؟ فانظر إذن أى خير سيصيبك من بعد ذهابه .. لم تعد لك حجة فى فقرك أيها الشاعر إن كان الحمار هو حجتك » فغضب ابن عمار من

نفسه هذه المتشائمة ، وهب يريد أن يسير ، وهم أن يبحث عما يركب ، ولكنه تذكر أن حماره قد سرق ، فعلم أن نفسه على حق فى سخريتها ، وامتطى قدميه وهم بمسير .. لم يكد ابن عمار يخطو متباعداً عن القصر حتى لحقه من ينادى به ، فكذب أذنيه أول أمره ، ولكن النداء ألح ، فالتفت إلى من ينادى ، فإذا هو خادم من القصر يسعى إليه ، فانبثق فى نفسه وامض أمل غشيته سحابة خوف ، ولكن صوت الخادم ما لبث أن علا طاغياً على هواجس نفسه ، طالباً إليه أن يعود معه إلى القصر .

ورجع ابن عمار إلى القصر الذى ترك فيه رماد أمل ضخم من آماله ، ولكن ما لبث هناك أن رأى هذا الرماد من الأمل قد تجسم ، فصار الأمل حقيقة واقعة يكاد لا يصدقها لطول عهده بالآمال المحترقة ، ولا يستطيع أن يكذبها ؛ لأنها قائمة أمامه وهو يقظان غير نائم ، وهو مفيق غير مخمور بغير هذه النشوة التى انسابت فى إحساسه لأول مرة فى حياته ... لقد تحقق أمل . أمر المعتضد أن يكافأ ابن عمار ، فتجزل له المكافأة ، وأمر له بملبس فخم وبمركب فاخر ، جعل ابن عمار يلعن حماره وأيامه النكدة ، وكل هذه الأعطيات لا تساوى شيئاً فى نظر ابن عمار إذا قاسها بالأمر الأخير الذى قضى بأن يكتب اسمه ضمن شعراء القصر .

أصبح ابن عمار إذن من شعراء القصر ... لقد آن للشريد فى أقطار الأرض أن يراح إلى ملجأ ، وأن يهدأ إلى مستقر .. يتلقى ابن عمار ذلك الخبر ، ويهم بأن يذهب إلى الحجرة التى خصصت به ، ولكن خادماً يأتى إليه ويخبره أن مولاه المعتمد يطلبه فيجف قلبه ! وكيف لا ؟ ؟ المعتمد شاعر رقيق غزل ، لم يقل الشعر فى يوم تكلفاً ولم يقله محتاجاً ، وإنما أحسه فقاله ، وابن عمار لم يقل الشعر إلا صناعة ... وكيف لا ؟ وهو قد تلقى هذا الخير جميعه ، ولا بد لشر أن يلحق بالخير ، ولا بد للمعتمد أن ينتقد ، ونقد الأمير شتيمة قد تصل إلى ماهو أدهى .

يذهب ابن عمار إلى حيث يدله الخادم ، فإذا هو يجد ثلة من القوم ليس بينهم من هو أفضل من الآخر ، وقد افترشوا جميعاً وسائد على الأرض ، ويبحث بينهم عن المعتمد الذى رآه فى مجلس أبيه فلا يجده ، فيتلفت إلى الخادم يسأله عن المعتمد ، ولكن الخادم كان قد انصرف ، فيعيد وجهه إلى القوم فإذا هم مشرئبون إليه ، وإذا واحد منهم كان قد رآه حين أنشد قصيدته يقوم إليه ، ويقدمه إلى الجالسين ، ويفهمهم أنه أصبح منهم . فيعلم ابن عمار أن هؤلاء هم شعراء القصر فلا يحتشم منهم شيئاً ، فقد كان يعلم أنه خير منهم صناعة ، وأنه أكبر منهم نفسا . يجلس إليهم فيقولون ويقول ، ويسمرون فيسمر ، فإذا هو أكثرهم دعابة ، وإذا دعاباته تنطلق على طبيعة مواتية لا أثر فيها للكلفة ، فقد رأى كثيراً وتعلم .. ولقد اختلط بأقوام كثيرين ، وعلم

أن المرح هوخير عون له بعد الشعر ، وعرف أيضاً أن هذا المرح إن شابه تكلف أو صناعة أصبح ثقلا لا يتحمله أحد ، وكان من حسن طالعه أن روحه كانت صافية بطبيعتها ، فهو ينطلق على سجيته ، فيجد الجالسين يميلون إليه بحديثهم ، ويؤثرونه بالتفاتهم ، وإذا هو روح المجلس المنطلقة الجميلة ..

وبينا ابن عمار منطلق فى دعاباته ، إذا بالمجلس قد غشيه الوقار فجأة ، وإذا بالمنطرحين إلى الأرض قد نفروا جميعاً وقوفاً ، فيعجب ابن عمار عجباً يقطعه صوت جديد عليه يلقى السلام إلى من بالحجرة ، ويلتفت ابن عمار فيجد المعتمد داخلا إليهم من باب لم يكن ظاهراً ، فيرى ابن عمار تلك الأبواب السرية التى كان يسمع عنها ، وإن كان لم ير داعياً لهذا التخفى الذى اتخذه المعتمد وهو يدخل إليهم ... يدخل المعتمد وعينه على ابن عمار ، ثم هو يطلب من الشعراء أن يتخذوا مجالسهم ، فيتخذوها متوقرين ، ويلتئم الجمع حول المعتمد ، فيلتفت إلى ابن عمار ويقول له :

ـ هيه يا ابن عمار ، لو أن الشعراء فعلوا ما فعلت اليوم ما ربح أحد منهم شيئاً ... أتمشى أيها الرجل قبل أن تنال جائزتك ؟

فيقص ابن عمار على المعتمد كل ما لاقاه فى يومه هذا من آمال خابت وحمار سرق ، ثم يكمل القصة بهذا الخير الذى سكب عليه ... وكان ابن عمار يقص فى انطلاقة لم يعهدها المعتمد فيمن يحادثه ، وفى مرح طرب له المجلس وعلى رأسه المعتمد ... وابن عمار جذلان بما

يلاقى كلامه من استحسان ، يشجعه على المضى فى حديثه علمه أن الأمير يشتهى دائما أن يسمع الحديث عبيطاً لا أثر فيه لتنميق ، لكثرة ما يسمع من التنميق ، ويشجعه من قبل ذلك الضحك الذى يستقبل به ، وهكذا عرف ابن عمار كيف ينفذ إلى المعتمد فيصل إلى نفسه من الطريق القريب ، وهو طريق الطبيعة العارية التى لا تحب التعمل ولا التكلف ، وهو الطريق الذى عمى عنه كل من صاحب المعتمد من قبل ، فإن أقرب الطرق دائماً هى أبعدها عن الذهن المحدود .

سر المعتمد بالشاعر الجديد ، وقربه إلى مجلسه ، ثم حادثه عن قصيدته التى ألقاها فى أول الليل فإذا هو معجب بها ، فيجيب ابن عمار :

ـ وأين هذا يا مولاى من قصيدتك التى تقول فيها :

واصبر فإنك من قوم أولى جلد ... ماذا يعيد عليك البث والحذر

وازجر جفونك لا ترض البكاء لها ... واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر

وإن يكن قدر قد عاق عن وطر ... فلا مردّ لما يأتى به القدر

وإن تكن كبوة فى الدهر واحدة ... فكم غزوت ومن أشياعك الظفر

كم زفرة فى شغاف القلب صاعدة ... وعبرة من شئون العين تنحدر

واصبر فإنك من قوم أولى جلد ... إذا أصابتهمُ مكروهة صبروا

لم أوت من زمنى شيئا أسر به ... فلست أعهد ما كأس وما وتر

ولا تملكنى دل ولا خفر ... ولا سبى خلدى غنج ولا حور

رضاك راحة نفسى ـ لا فجعت به ... فهو العتاد الذى للدهر أدخر

لا زلت ذا عزة قعساء شامخة ... لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر

قال ابن عمار هذه الأبيات وهو يترنم بها ترنم المعجب المخمور بما ينشد ، والمعتمد يستمع وعلى وجهه تتوالى موجات من السخط والرضى ، فليس يدرى أيهما أولى بالظهور ، وأيهما أدعى إلى الاستخفاء ، حتى إذا انتهى ابن عمار من الأبيات التى يحفظها تغلب السخط على الرضى فى نفس المعتمد ، وإن السخط لغالب دائماً فى نفس الملوك ... انتفض المعتمد صارخاً :

ـ أتذكرنى بموقعة هزمت فيها وباعتذار عن خذلان !؟ لبئس ما اخترت لى يا ابن عمار ، ولبئس ما شاء لك حظك .

ـ بل نعم ما اخترت لك ، ونعم ما اختار لى حظى أيها الشاعر .. أنا لا أعرفك فى موقعة وأنا لا أعرفك أميراً ، وإنما أنا أعرف فيك الشاعر الرقيق ، وأعرف فيك المعتمد بمجده الذى أنشأه هو بقلمه لا بمجده الذى أنشأه له أبوه وأجداده .

وفكر المعتمد قليلا ، ثم هز رأسه وقد أعجبه الكلام ، فكل جديد جميل . وقال لابن عمار :

ـ بل ليس بعد يا مولاى ، فإن لى مأخذا على شعرك هذا الذى ذكرت .

وبهت المعتمد ، فهو لم يسمع كلمة المأخذ هذه لاحقة بكلام يقوله أبداً ، ولكن ابن عمار لم يحفل دهشة المعتمد وأكمل ما يقول :

ـ لقد قلت فى بيتك الثانى : وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها ... إنك لتخاطب أباك فى قصيدتك تعتذر له عن هزيمتك ، وأنا لا

أظن أن أباك بكى ، بل لو كان بكى لكان عليك أنت أن تكتم الأمر فلا تبن عنه ، أما أن تقوله شعراً فهذا ما لا أرضاه لك شاعراً أبداً .

سمع المعتمد الحديث ووعاه وأصابته وخزة النقد ، ولكنه وجد لها مساً رقيقاً حلواً لم يعهده من قبل فى المديح الذى يسمع ، لقدأحس صدقاً فى حديث ابن عمار وهو لم يعهد الصدق فى كل من يخاطبونه ، بل كان يشعر بفراغ ضخم من الناس ، فقد كانوا جميعاً يتملقونه ؛ فهم فى عينه لا يملأون الفراغ الذى أتاحه الله لهم فى الدنيا ... بل إنهم يزيدون هذا الفراغ فراغاً ... سمع المعتمد وفرح بما يسمع ، ثم هب فى الجالسين :

ـ أسمعتم أيها الشعراء ... إن فى العالم صدقاً ... لقد مكثتم السنين تستمعون وتعجبون ، ألم أقل شيئاً ينتقد فى يوم من الأيام ؟ ومن أنا أيها الشعراء ؟ أكنت الله يرسله تنزيلا ولكن صدقاً انبثق فى القصر ... فأهلا ... أهلا بالصديق الذى طال عنه البحث .

مال المعتمد إلى ابن عمار يذاكره شعره ، وابن عمار يمدح فى تحفظ وينقد فى أدب ووضوح . وحين يجد المعتمد معجباً بنفسه يشجعه على إعجابه ، فهو يلاينه ويشعره أنه يقسو عليه ، وهو يمدحه ويجعله يحس أنه ينقده ... حتى انتهى الليل ودارت الرؤوس تهفو إلى النوم ، فانفض السامر وافترق الشاعران الصديقان وقد اعتزما لقاء فى يومهما التالى ، بل لقد اعتزما لقاء فى كل أيامهما التالية ... فهلمى أيتها الأيام ، وأرينا ما الذى تخفينه لصداقة جديدة وعهد جديد .